شارع الرشيد،عين المدينة و ناظم النص

ليس صعبا على المرء أن يقرأ تاريخ مدينة من المدن من خلال شوارعها فالشارع هو المكان الذي تجتمع فيه تواريخ المدينة و صراعاتها و حروبها و هزائمها و عبر التدقيق في طراز الشارع العمراني و التغيرات التي طرأت عليه عبر الأزمنة و السمات التي تميزه يمكن معرفة الحضارات التي مرت على هذه المدينة او تلك ،كما أن الحركة اليومية الصاخبة و المحمومة للشارع تخبئ ملامح مستقبل المدينة و آفاقها ،فالشارع في المفهوم اللغوي هو مستمد من الشرع و التشريع أي المكان الذي يحفل بالآراء و الأحاديث و وجهات النظر المتباينة و المختلفة و من هنا كان قولنا مثلا " رأي الشارع " العراقي أو المصري أو التركي او الفرنسي.... الخ و هو تعبير يشير الى الرأي غير الرسمي فالعلاقة بين الشارع و الناس يكون فيها الشارع جزءا من العلاقة الجدلية بين المدينة و حركة الناس اليومية و ذلك بخلاف ما تعنيه العلاقة بين الشارع و السلطة اذ أن الشارع هنا يصبح جزءا من مكانة السلطة فتجري عليه كل مراسم الممنوع و المحذور و توضع المتاريس و تمنع على العامة المرور فيه كما هي الحال مع الشوارع العربية القريبة من مراكز صنع القرار.

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

إن التغيير الذي يطرأ على الشارع لا يحدث بشكل اعتباطي بل يخضع للكثير من الاعتبارات و الظروف فهو في جوهره إشارة إلى تغيير في بنية المجتمع و مفاهيمه و معتقداته و آلية تفكيره ونمط معيشته و تطلعاته و لعل هذه الجدلية هي التي هيمنت على اهتمام الباحث العراقي ياسين النصير و قد وجد ضالته في أشهر شارع في بغداد آلا و هو شارع الرشيد الذي كان المتغير المكاني فيه مؤشراً على تغير أشمل و اعمق في حياة المجتمع و المدينة فاصبح هذا الشارع الوعاء الذي استوعب اهتمامه النقدي الذي أثمر عن كتاب "شارع الرشيد ،عين المدينة و ناظم النص" الصادر أخيرا عن دار المدى (دمشق-2003).

و لعل ما يلفت الانتباه هو أن الكتاب لايمكن تصنيفه ضمن شكل كتابي محدد فهو ليس رواية رغم أن فيه من سياق الرواية و من أحداث واقعية و أخرى متخيلة ما يقربه من هذا الجنس الأدبي ،و هو كذلك ليس بكتاب تاريخي موثق يعتمد بصورة رئيسة على الأرقام و الوقائع و التواريخ رغم انه يحوي الكثير من ذلك ،كما انه ليس دراسة اجتماعية او سياسية او نفسية كتبت وفق منهج علمي محدد رغم انه لا يخلو من هذه المقاربات .ليبقى ما هو أكيد متمثلا في أن الكتاب عبارة عن انطباعات ذاتية و جدانية مبعثرة في ثنايا الذاكرة مقرونة بمعرفة واسعة يدونها الكاتب كوثيقة عن شارع و حروب و عن شارع و مدينة و عن واقع يتشكل من جديد بطريقة اقتصادية و أيديولوجية" مشوهة" و عن أناس يعرفهم و عن آخرين غارقين في الضياع لا لغة لهم سوى "الكتابة على جدران السجون و المنافي و المعتقلات" و عن شخصيات تاريخية تمتد من هارون الرشيد و هولاكو مرورا بالولاة العثمانيين و المندوبين السامين الإنكليز و الملك فيصل و عبد الكريم قاسم وصولا إلى الدكتاتور الذي حكم بغداد بالحديد و النار صدام حسين و رغم أن هذه الدراسة كتبت ،كما هو واضح ،قبل الحرب الأمريكية على العراق غير أن الحال لم يكن حينذاك أفضل مما هو عليه الآن حيث الاحتمالات مشرعة على المجهول و حيث بغداد و شوارعها معرضة دائما لخطر زوال الذاكرة التاريخية .اذا جاز التعبير.

يعتبر شارع الرشيد من اشهر شوارع بغداد فهو مثل شارع الحميدية مثلا بالنسبة لدمشق و شارع محمد علي بالنسبة للقاهرة و كان يسمى في عصر السلطنة العثمانية بـ "شارع خليل باشا" نسبة إلى الوالي العثماني المسمى بهذا الاسم و الذي فكر بتوسيع هذا الشارع كي يوصل به مناطق بغداد البعيدة بأواسطها ذات البساتين فحملت المنطقة نواة العمران الاقتصادي و التجاري كسوق للمنتجات الزراعية و الصناعية و كان هذا إيذان بتأسيس أول مركز تجاري في العراق و يبدأ شارع الرشيد بمنطقة باب المعظم و فيه عشرات المنعطفات الكبيرة و الصغيرة و فيه المحلة الأشهر محلة الميدان و قد سمي هذا الشارع فيما بعد بـ "الجادة العمومية" ثم "الشارع العام" لتتفتق أذهان الساسة المعاصرين عن تسمية تنطوي على عراقة الماضي و الأمجاد الغابرة إذ سمي "شارع الرشيد" تمهيدا لجعله مكانا للسلطة و الهيبة و النفوذ حيث تحول بعض المباني فيه إلى هيئات و وزارات رسمية كوزارة الدفاع مثلا فصار الشارع عنوانا للسلطة ذلك أن الأماكن القريبة من مواقع السلطة تكتسي بهويتها كما يقول النصير.

و يرى الباحث بأن للبلدان مدنها المهمة و للمدن شوارعها المسماة بأسماء دالة على معنى ينتمي للتاريخ و للشوارع محلاتها المسماة بأسماء و تواريخ و أرقام لها دلالة هي الأخرى فاسم شارع الرشيد يصبح نافذة حافلة بالدلالات التاريخية تعيد إلى الأذهان عصر الخلفاء العباسيين .فالشارع هو تاريخ للتفاصيل التي تحتويه و تشكله ،و بهذا المعنى ثمة في شارع الرشيد من أسماء المحلات و المقاهي و المتاجر و الجوامع و المدارس ما يشير إلى تعاقب ثقافات و أيديولوجيات و حضارات مختلفة مما يعني أن لموقعه التاريخي أهمية فكرية و سياسية ليصبح في الوقت الحاضر حاملا لبانوراما عمرانية و ثقافية متناقضة ،حيث تتزاحم الأسماء على جانبيه : الحيدر خانة .العاقولية .الدشتي .التسابيل .رأس الكنيسة دكان سمعو .تبة الكرد .الصابونجية .الفاخرة .الطوب خانة .باب الآغا .الشورجة .عقد النصارى .المستنصر .حسن باشا. . .و غيرها كما أن أسماء و معالم كثيرة اندثرت مثل : الطاق في بداية المعظم ،منارة جامع الأزبكية .سجن القلعة .مدرسة المامونية .حائط جامع مرجان .و سواها.

و يحتل شارع الرشيد الموقع المحرك و الفاعل في بنية بغداد المعاصرة و كذلك بغداد الاسم و التاريخ و التراث فهو بنية العمل و السلطة العسكرية و السياسية و التجارة .و المال و الاقتصاد .و الثقافة .و الأزياء .و العدل .و بيوت الأنس و الدعارة و الغناء و الطرب .و المقاهي و الجوامع .و ساحة للثورات، و المخازن، و العطور .و العمارة و الصياغة، و تجارة النقد و الأقمشة، و بضاعة العتيق و هو يضم ،منذ أقدم العصور، أروقة للصفقات العلنية و الخفية .إنها مدينة صغيرة متكاملة ضمن مدينة كبيرة . ففي أرصفة هذا الشارع و على جدران مبانيه و عند منعطفاته و ممراته و مداخله ثمة تاريخ كامل متناقض و متصارع و متباين يعيش جنبا إلى جنب طالما أن الزمن كفيل بخلق التوازنات و التصالحات التي يكون الشارع مسرحا لها و راويا للأجيال المتعاقبة حكايات المدينة الغريبة العصية على الفهم و التصديق و التي يحاول الكاتب فك بعض ألغازها.

و لا يبتعد القارئ كثيرا عن الحقيقة حين يقول بأن شارع الرشيد في كتاب الباحث ما هو إلا ذريعة يتكئ عليها الباحث ليطرح أفكاره و هواجسه و تطلعاته .و تطلعات الكثير من العراقيين ممن يعيشون بخوف في بلادهم او أولئك الذين يعيشون في المنافي في حالة من القلق و الترقب .وكذلك فان هذا الشارع هو معبر الباحث للوصول إلى سرد لتاريخ بغداد المليء بالمآسي و المفارقات و الانعطافات الكبرى التي جعلت منها مدينة فريدة في تاريخها و لعل ما يجري اليوم في هذا البلد و في بغداد و شارع الرشيد و غيرها من شوارع هذه المدينة هو امتداد لتاريخ طويل لم تشهد بغداد خلاله الأمان و الطمأنينة إلا في فترات زمنية قصيرة .و ثمة نبرة موجعة تبرز من خلف السطور نابعة من إحساس النصير بفقدان المكان الذي يكتب عنه و كأن الكتابة ستنقذ أمكنة الطفولة البعيدة و تحميها من التلاشي أو النسيان و نتيجة لهذا الإحساس و بسببه فهو يتوسل في عرض أفكاره و انطباعاته و مخاوفه و أمنياته لغة أدبية مؤثرة تفصح عن تعلقه بهذا الشارع الذي يعتبر بالنسبة لبغداد "بمثابة العين من الجسد".

كتاب الانهيار

مساهمة في البحث عن عالم أفضل

كان من سوء حظنا، نحن جيل الخمسينات، أن نصل الاتحاد السوفياتي ونزوره في أيام انهياره، لنكون شهوداً على هذا الانهيار الذي ترك أثاره على مصائر الحياة الفكرية والاقتصادية لدول ومؤسسات وأفراد في كل مكان. وفي تلك الأجواء كان لقائي مع الصديق الفنان أحمد النعمان، وكانت لنا ذكريات طيبة، أشار اليها في كلماته الجميلة التي خطها بأنامله البارعة على صدر صفحات كتابه الانهيار (دار الكنوز الأدبية 2002) الذي حمله البريد الي كهدية عزيزة وغالية، وأحاول هنا تسجيل بعض من انطباعاتي بعد قراءة الكتاب.

يوسف أبو الفوز

يعتبر فشل تجربة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي، ومن ثم زوال إمبراطورية تمتد على سدس الكرة الأرضية، واحدة من أبرز الهزات السياسية التي حدثت في القرن العشرين. وظهر عدد لا يحصى من الكتب والدراسات الاقتصادية والسياسية لتحديد أسباب فشل التجربة، وبرغم ذلك فكل يوم يظهر كتاب جديد ليلقي أضواء جديدة على زاوية أو مكان ما من الخارطة المتشابكة الخطوط لتلك التجربة، التي وإن فقدت جاذبيتها لفترة، لكنها لا تزال تملك بريق الحلم الإنساني في سعيه الدائب من أجل مجتمع أكثر عدالة وإنسانية، خصوصاً مع تزايد الوعي الاجتماعي بكون الرأسمالية ستظل عاجزة عن إيجاد الحلول للمصائب التي أنتجتها هي نفسها في سياق تطورها. ويأتي كتاب الدكتور أحمد النعمان شهادة تحمل وجهة نظر حول جوانب من أسباب فشل تجربة البناء الاشتراكي، وتوافقاً مع الألم الذي ولده زوال الاتحاد السوفياتي في قلوب الكثيرين، وردود الفعل الفكرية التي طالت مؤسسات وأفراداً. جاء عنوان الكتاب، من كلمة واحدة "الانهيار" وكأن الفنان النعمان يريدها أن تسقط كالحجر على رأس القارئ ليفيق وينتبه، وربما مع قليل من الألم يتناسب وحصانة "رأس" القارئ الفكرية. وبحرفة عالية يقوم النعمان باختيار واحدة من القصص المرعبة التي شغلت ولفترة وسائل الإعلام الروسية آلا وهي قصة اعترافات الوحش البشري (أندريه جيكاتيلا) الذي اغتصب وقتل 53 مراهقاً ومراهقة، وظل طليقاً لفترة تمتد لعشرين عاماً دون أن تهتدي إليه الأجهزة الأمنية المتعددة للدولة التي دوخت العالم بقدراتها الاستخبارية. إن واحداً من الأسباب التي ساعدت سفاحاً مثل جيكاتيلا أن يستمر في نشاطه المرعب عشرين عاماً، والتي تقودنا إنها مادة الكتاب، هو فساد الأجهزة الأمنية للدولة السوفياتية، وعزلتها عن المواطن، وعداؤها للشفافية في التعامل مع نشر المعلومات بحيث يتم التستر على كل معلومة، وبدون اعتبار لأحقية المواطن ليعرف ما يجري ويدور حوله وظلت المعلومات حبيسة أدراج الموظفين والمسؤولين البيروقراطيين، كأسرار دولة مقدسة، مما وفر للمجرم حرية الحركة وسط المجتمع الجاهل بأعماله وما يقترف من جرائم مروعة. وبمجرد الانتهاء من قراءة الكتاب، فالسؤال الذي يخطر بذهن القارئ: هل الكتاب رواية، مثلما كتب الناشر على غلافه؟ باعتقادي أن الكتاب عمل صحفي إبداعي، بلمسات قصصية، سجلت ببراعة تامة، ويمكن أن نسميه "ريبورتاج روائي"، أو ما يشبه ذلك، إذ برغم اللمسات القصصية، التي كان بعضها بارعاً ومتميزاً، ظلت المادة الصحفية هي الغالبة على الكتاب، ليس في عناوين فصوله فقط، بل في قوام مادته الصحفية الغالبة على فصول الكتاب. فالنعمان بنى مادة كتابه بأسلوب مشوق، بكثير من الدراية في (تكنيك الكتابة البوليسية)، معتمداً على محور أساس هو القصة الحقيقية للمجرم السفاح وعملية الإيقاع به من قبل رجال شرطة سوفيت، برغم فساد الأوضاع ظلوا مخلصين لمهنتهم وإنسانيتهم ونشر حول قصة المجرم وبراعة، كما لا يستهان به من المواد الصحفية الوثائقية، التي بذل جهداً واضحاً في اختيارها وتشذيبها. ففي الكتاب سنجد قصصاً أخرى عن مجرمين آخرين يمكن أن نصادفها في أخبار الحوادث في الصحافة اليومية، وتراجم صحفية لحياة عدة شخصيات، وفيها لم ينس الكاتب أن يقدم لنا تواريخ ميلادهم ووفاتهم، مثل الراهب المشعوذ راسبوتين، المركيز جي ساد، والقائد السياسي خروشوف، وتمتد هذه التراجم على صفحات عديدة من الكتاب. ونجد معلومات تقريرية وانطباعات صحفية عن الحياة في الاتحاد السوفياتي، بل سنجد العديد من الطرائف المتداولة بين الناس، وأحكاماً فكرية مباشرة عن بعض الشخصيات، ينسى الكاتب خلال بعضها أحياناً دوره المحايد كراوية ويقدم موقفه الفكري بنبرة صحفية عالية (الحديث عن زوغانوف مثلاً). إن استخدام هذا الكم من المادة الصحفية الوثائقية، باعتقادي سجن الكاتب ووضعه في قيد الارتباط بحقيقة ووثائقية المادة، مما حد من قدرته على بناء عالم فني متخيل، يسمح فيه للفنان الكاتب أن يحلق ليرسم مدارات قصصية أرحب. وهذا يقودني إلى القول، أن وظيفة المبدع هي ليس في تسليط الضوء وكشف مساوئ الحياة الإنسانية بشكل عام، وهذه نجح فيها النعمان من خلال كل جهده ونشاطاته المتعددة الأوجه، ونلمس ذلك أيضاً في إهداءه كتابه إلى الأجيال الناشئة التي تتمنى "أن تأخذ مكانها تحت الشمس بأقل الخسائر". وفي الكتابة الفنية يمكن أن يكون هذا من خلال طرح رموز أو إشارات أمل لتخطي مساحات الألم والفشل الإنساني، فأين هذا في كتاب "الانهيار"؟ ربما يمكن القول أنها شخصية (الضابط بيتورن)، ولكن باعتقادي هي شخصية إيجابية عامة، فهو رجل قانون ونظام نزيه وشريف، ويمكن أن نلتقيه في أي بلد اشتراكي أو رأسمالي. وبحكم كون كتاب النعمان مساهمة في البحث عن عالم أفضل، كتب وكقارئ أطمح لوجود شخصية، تحمل شيئاً من وجع الفنان النعمان نفسه، وتظل تشير إلى كون حلم أفلاطون يمكن له أن يهبط يوماً من صفحات الكتب وأحلام الفلاسفة إلى الواقع حيث الإنسان يفهم قيمة الإنسان الآخر. وهذا الذي أقوله لا يمكن أبداً أن يقلل من قيمة الكتاب الذي جاء كشهادة تعكس الحس الإنساني للمؤلف، وموقفه الفكري الذي نتلمسه من خلال حسرته على انهيار البناء الشامخ لدولة كانت قبلة للثوريين والديمقراطيين والحالمين لتحقيق حلم الثوار الكبار.

جامع التوت البري

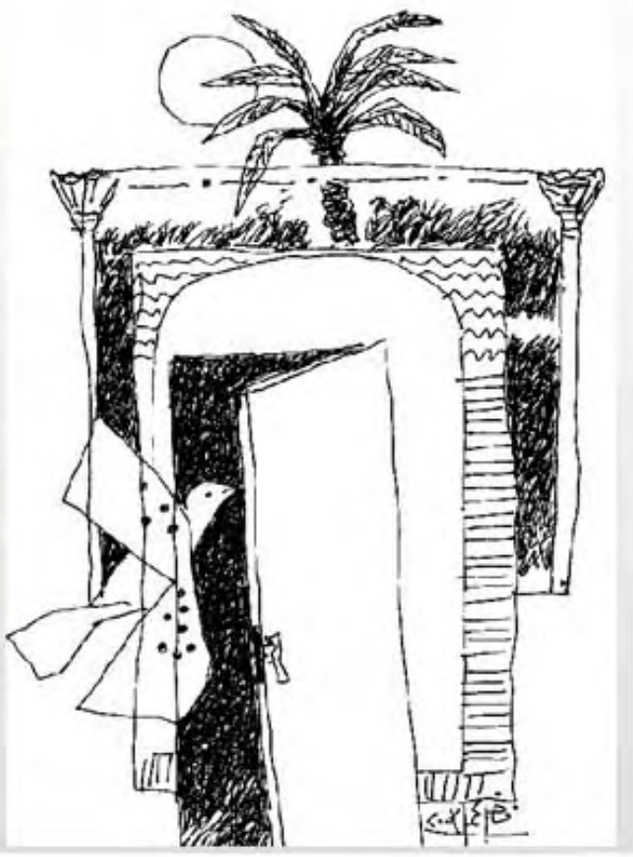

إبراهيم البهرزي

أنا آخر الليل
أما الصباح
فتلك التي أرهقت نفسها
بالنعاس...
******
نرود البساتين مستكملين
أناقتنا بالمعاصي
نؤسس حزباً من الأريحيين
يستظهرون الزمان على
قبحه، بالمزيد القبح:
كلّ زمانٍ له في الجمال خصال
ولكننا لا خصال لنا غير هذا
الطريق
يتأرجح في الليل حتى يهب
وينسى التراب
فنمسك من رجفة أذرع
التوت.

تدمي أناملنا ثمراً أسوداً
ونعود إلى الطرقات رفيف
غراب.
*****
كان ما أكمله!
بدر تلك القرى،
لينا
حد أن نتبسط فيه
ونستمهله.
ويظل إلى الصبح سكران
ينسى الدوام
وينسى المدار الذي هيت له..
كان ما أكمله بدرنا
حيمنا كان لليل فينا كلام
مطاع
وكان لنا في نقائض بعض
الطبيعة،

مقترح التكملة!
******
نرود البساتين:
أستذكر الليلة البرتقال
العتيق
وعطر الندى في رسائلهم،
وهي تشهق بالحر والثلج،
أستذكر الليلة الهاربين
جميعاً إلى المرتجى،
ما البطولة إن نحن متنا
شتاتاً
وظل الطفيلي ينسج
(فاتحةً) لأبيه الطفيلي
تطوي المدى
وتجيب إليها إضطراراً
عزاء المراوغ، ممن نجا
ويموت الصدوق على صدقه

أعزلاً مفرداً؟!
****
أنا آخر الليل قال،
وقال الصباح:
كم تحيرني فلسفات الرياح!
كلما التمس العيش عندي
قتيل
وقدم أوصافه
ذهبت بالشهود بعيداً،
وأغرت غيوماً
وحل المطر..
أنا من أرومة (كلكامش)
استبعدتني الحروب
لأني عبد من الجائرين
جواراً،
ألف قتل قتلت
وثم استعدت بسخرية

سخرة
واحتجزت إلى الآن
في فيلق المنتصر
هل قتيل أنا أم أنا قاتل؟
ليس أهلي من حروبوا
لا ولا حاربوا
إنما أنا عبد غريب الأصول
أحاول في فرصةٍ بين حربين
أن أسكن المكتبة
لأنقب عن نسب أو سبب
غير إني عبد غريب الأصول
يسائلني المكتبي عن
الواسطة
فأعود حزيناً إلى المسغبة
وأجنن ما بين حقي العتيق
وبين جديد العجب...
****

نرود البساتين
نجمع توتاً بلا مالك....
ولو كان للتوت دخل ذكي
وسوق
لما اصطف في حدقات
الطريق.....
ولا كان للعائدين توالي
الليالي سكارى
بقية زاد....
أيا توت يا هبة الهائمين بغير
بيوت،
الأنوثة خيرك
حيث الأنوثة زاد المعاد
فماذا سيجدي انتضاعاً لنا
الكبير، الوفير الظلال،
الطويل العماد
وهو في آخر الأمر ليس سوى
فحل توت!